صخرة النجوى *

لالفرد دى ميسيه

« الحياة عذبة سائغة ولكن
عند من لا يعرفونها ... »

بقلم الأستاذ أحمد المحمود

وكان الليل جميلا رائعاً ، والقمر يصّاعد متئداً على شمالى ، وقد اجتذب اليه نظر « بريجيت » طويلا وهو يخرج متسللا من الأسنان السوداء التى كانت المضبات الحرّجة ترسمها على رقيع الأفق . ورقت أغنية « بريجيت » الشجية حينما أخذ القمر يتخلص من أسوجة الغابة الكثيفة وتتسدّى أضواؤه فى الفضاء وعلى الجلَد ، فانحنت على تطوق رقبتى بذراعيها قائلة :

« لا تظن أنى لا أعلم قلبك ، وأنى أنتسب لك لايلامك إياى ؛ وليست الخطيئة خطيئتك إذا ضقت ذرعا يا صديقى العزيز بنسيان حياتك الماضية . ولقد أحببتنى وكنت مؤمنا بهذا الحب ولن أتأسف — إذا ما أسكت هواك نأمتى — على هذا اليوم الذى استسلمت لك فيه . واعتقدت أنك بُعثت الى الحياة ثانية وأنك ستنسى — بين ذراعى — ذكريات اللواتى أضعنَك . واحسرتاه يا أكتاف ! لقد تبسمت فيما مضى من هذه التجاريب الباكرة التى كانت لك فى حياتك والتى كنت تدل بها على كالاطفال الذين لايدرون من أمور الحياة شيئا ، وحسبت أن ليس لى إلا أن أشاء ، وأن قد سيطفرُ كل ما فى قلبك من صلاح وخير على شفتيك للقبلة الأولى التى منحتك إياها ، وقد كنت أنتَ تحسبُ ذاك أيضاً ولكن كنا مخدوعين . أيها الطفل ! ... إنك تحمل فى قلبك جرحاً لا يندمل ، ويجب أن تكون قد أحببت هذه المرأة الخادعة الهاجرة حباً جماً ؟ أجل ... وأكثر مما أحببتنى وإلى أبعد الحدود واحسرتاه ! . . . لأننى لم أستطع — مع حبى الشديد البائس — أن أمحو من مخيلتك صورتها ! ويجب أن تكون خديعتها لك قاسية لأن أمانى تبذل لك عبثاً ؟ والأخريات الشقيات ماذا فعلن لتسميم شبابك ؟ وهل كانت الملذات التى بعثها منك حادة ورهيبة لتطلب إلى أن أماثلهن وأناثرهن ! . . . وتذكرهن وأنت بجانبى ؟ ما أقساك أيها الطفل ! . . . ولأحبُّ للنفس وأثلج للفؤاد أن أراك ظالماً مغضباً ، وأن تنسب إلى الجرائم الوهمية وأن تثأر منى للأذى الذى لحق بك من خليلتك الأولى من أن تطفر فى وجهك هذه السمرة الرهيبة وهذا المظهر الخليع الذى ينتصب حجاباً من الصلد الأصمّ بين شفتى وشفتيك . قل لى أكتاف ، لم هذا الصقيعُ فى شفاهك ؟ ولم هذا التهكم والاحتقار يبينُ فى حركاتك وسكناتك ؟ وإنك لتسخر — بحزن شديد — حتى من أعذب صباباتنا ، وكيف استحوزت على أعصابك المهيجة هذه الحياة الماضية الرهيبة حتى تنثال من فمك مثل هذه الشتائم بالرغم منك ؟ أجل بالرغم منك لأن لك قلباً نبيلاً وتصطبغ خجلاً مما تفعل . أنت تحبنى كثيراً ويجب أن يُسعدك هذا الحبُّ لأننى آلم منه كما ترى . آه ! أعرفك الآن ! . . وعند ما وقع بصرى عليك لأول مرة وأنت على حالك هذه عرانى هول شديد لاشىء يعطيك صورة عنه . ولقد حسبتك ماجناً فى تودداك إلى ، وأنك تحاول خدعى بسيماء هذا الحب الذى لم تكن لتحس به ، وإنى أرى حقيقة نفسك كما بدت لى لأول وهلة . أواه يا صديقى ! لقد فكرت فى الموت وأية ليلة فكراء قضيت ! أنت لاتعلم حياتى ولا تدرى أننى — أنا التى أخاطبك — قد خلصتُ من هذه الحياة بتجربة هى أعذبُ من تجربتك وأحلى . واأسفاه ! الحياة عذبة سائغة ولكن عند من لا يعرفونها

أى عزيزى اكتاف ! لست بالرجل الأول الذى أحب . إن فى أعماق هذا القلب ذكرى مشئومة راقدة أحب أن أطلعك عليها

أعدّنى والدى منذ بكورى فى الحياة إلى ابن صديقه الأوحد ، وكانا جارين فى الدار والأرزاق ؛ وعاشت العائلتان على هذا النمط من الاختلاط والوحدة . مات أبى وتصرّم زمن طويل على فقدان أمى فانتقلت الى وصاية خالتى التى تعرفها ، وأزمعت خالتى سفراً فأسلمتنى إلى حميّ الذى عشت فى كنفه برهة من الزمن ،

(*) القطعة مترجمة من كتاب «اعترافات ابن الجيل» لالفرد دى ميسيه طبعة لاروس فى القسم الثالث من الكتاب :
Confesions d,un cufaut du Siécle

وكان يدعوني بابنته ، وكان الجيران يعرفون خطوبتي من ابنه ، فيتركون لنا الحرية التامة

تظاهر دوما هـذا الشاب الذي لا أدري حاجة الى ذكره بمحبتي ، فقد كان صداقة ساذجة من أيام الطفولة تحولت الى حب وهيام مع الزمن . وكان يقص علي عند ما نخلو ، أو نكتن في زاوية من البيت عن السعادة التي تنتظرنا وذهوب صبره ، وكان يكبرني بسنة واحدة ، ولكنه تعرف الى رجل من الجيران سيء العيش محتكر للصناعة فوسوس له وأغواه ، وبينما كنت أستسلم إلى مداعباته بوداعة الطفل إذا به يغدر بوالده ويتركني بعد أن أضاعني

أتى بنا والده إلى غرفته وأبلغنا موعد الزواج فلقيني في مساء اليوم نفسه في الحديقة ، وبح لي بقوة عما يكنه لي من الحب ، وأنه زوجي منذ الآن أمام الله ونفسه ما دام أن موعد الزواج قد تحدد . فلم أعتذر اليه بغير شبابي وجهلي وسذاجتي ، فاستسلمت اليه قبل أن يتم الاقتران الشرعي ، ولم تمض ثمانية أيام حتى غادر بيت أبيه وهرب مع امرأة قدمها له صديقه الجديد فكتب لنا أنه مسافر إلى ألمانيا ومنذ ذلك الحين لم نره

هذه هي قصة حياتي وقد عرفها زوجي كما تعرفها أنت الآن ، ولي من عزة نفسي وكبريائها ما أهاب بي إلى العزلة ، فآليت ألا أقرب من رجل يسبب لي ألما وضرا أكثر مما لقيت في سابق حياتي ؛ ورأيتك فنسيت قسمي ولكن لم أنس جرحي ، فعليك أن تراني بتضميده . وإذا كنت مريضاً فأنا مريضة أيضاً ، فيجب أن نتعهد نفسينا بالتداوي . وأنت ترى يا أكتاف أنني أعرف أيضاً قيمة الذكرى الماضية التي ما تزال تقض مضجعي إلى جانبك ، ولكني سأتذرع بالشجاعة والصبر لأنني قاسيت أكثر مما قاسيتَ ، ومن حق البدء في هذا العمل ، وإن قلبي لقليل الثقة بنفسه ، وأنا أضعفُ عن احتمال أكثر مما احتملت . وكم كانت حياتي سعيدة في القرية قبل قدومك اليها ! وما أكثر ما أخذت على نفسي ألا أغير من حالها شيئاً مما جعلني أتطلبُ منها ما لا تستطيع أداؤه ، ولكن لتكن مشيئة القدر فأنا لك الآن ! أو لم تقل لي في أوقات انبساطك بأن العناية الأزلية سخرتني للحدب عليك كأم رؤوم ؟ الحق ما قلت يا صديق العزيز . أنا لست خليلتك كل الأيام وأود أن أظفر بأكثر من هذا في بعضها وأن أكون لك أماً حتى لا أرى فيك حبيباً يقسو على حبيبته . أواه يا أكتاف ! لقد أصبحت طفلاً مريضاً عاتياً متشكياً ، أريد أن أمرضه بنفسي وأبعث فيه الرجل الذي أحب وأهوى حتى الأبد . فليمدني الله بالقوة ! ... قالت ذلك ونظرت إلى السماء ضارعة : ربِّ يا من تارانا وتسمع نجوانا ! يا إلهَ الأمهات والمحبين ، هب لي الحياة للقيام بهذا الواجب ! وإذا كان لي أن أخفق وأن تثور كبريائي أو أن ينحطم قلبي البائس بالرغم مني وأن حياتي كلها ...

ولم تتم الكلام حتى غامت عيناها بالدموع فلم تعد تستطيع النطق . يا إلهي ! . إني أراها راكعة أمامي ويداها مضمومتان منحنيتان على الصخرة والهواء يموجها كما يموج حقول الخلنج المجاورة . يا لك من مخلوق ضعيف سام ! لقد صمت من أجل حبها ثم أنهضتها بذراعي متمتما : « واصديقتي الوحيدة ! وواخليلتي وأمي وأختي !.. اضرعي إلى الله واطلبي منه أن يمدني بالقدرة على حبك والاخلاص لك كما تستحقين . توسلي بأن يمد في حياتي وأن يقدرني على العيش وأن يغسل قلبي بدموعك وأن يجعله قربانا مقدساً نقياً نقدمه أمام الله !... »

واستلقينا على الصخرة وغرق كل ما حولنا في هدوء عميم وانبسطت السماء فوق رؤوسنا ألقـــة بالنجوم « أو تذكرين يا بريجيت لقاءنا الأول ؟ »

حمداً لك اللهم ! ومنذ هاتيك الأمسية لم نعد إلى تلك الصخرة التي ظلت لنا قدساً طاهراً والطيف الأبيض الوحيد من حياتي الماضية ما يعبر من أمامي إلا ويغترق بصري ويملأ حسي

(لطرطوس) أحمد المحمود

ظهر حديثاً كتاب

في أصول الأدب

صفحات من الأدب الحي والآراء الجديدة

بقلم أحمد حسن الزيات

يطلب من إدارة « الرسالة » ومن جميع المكاتب

وثمنه ١٢ قرشا عدا أجرة البريد